فهمُ الشَّرط الإنسانيّ: رهانُ تَربيةِ المُستقبل*

إدغار موران، ترجمة: عزيز مشواط

يجب على كل تربية وتعليم يبغيان امتلاك صلاحيتهما مستقبلاً، تجاوز التجزيء المؤذي، والتأسيس لفعل بديل ينبني على ضرورة الاعتراف بالطابع المركب للإنسان». تلك هي الخلاصة التي ينتهي إليها عالم الاجتماع والإبستمولوجي الفرنسي المرموق إدغار موران في هذا الفصل الثالث من كتابه الموسوم بـ«المعارف السبعة الضرورية لتعليم المستقبل».

وتأتي فائدة الكتاب من كونه يقدِّم المعالم الكبرى للمشروع التربوي الذي يدافع عنه إدغار موران، منذ سنوات، استناداً إلى نتائج وتراكمات مسار طويل في البحث والتفكير والنضال من أجل مستقبل أفضل، يكون فيه الفهمُ والقرارُ في مستوى التعقيد الذي يحكم تداخُل المستويات والمرجعيات والآفاق.

الكتاب برمته لا يشذ عن المنهج التي يعكف موران على تطويره منذ منتصف سبعينيات القرن المنصرم، إذ ينتهي استناداً إلى رؤية عبرمناهجية (transdisciplinaire) إلى استخلاص سبعة مبادئ رئيسية لكل تربية مستقبلية، قادته إلى تقسيم الكتاب إلى سبعة فصول: (عماء المعرفة: الخطأ والوهم، تعليم الهوية الأرضية، أخلاق الكائن الإنساني، مبادئ المعرفة المركبة، تعليم الشرط الإنساني، في مواجهة اللايقين، تعليم الفهم).

قدم للكتاب فريديريكو مايور المدير السابق لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم قائلاً "إن التزام مفكر من قبيل موران وحكمته يحظيان لدينا بأهمية قصوى، إن أفكاره تساعد اليونسكو على المساعدة في إحداث التغييرات العميقة والأساسية من أجل الإعداد لمستقبل أفضل".

الخلاصات التي انتهى إليها موران في هذا العمل تشكل عصارة أفكاره التربوية، لأنها أتت في سياق مشروع اليونسكو المتعدد التخصصات، الذي رفع شعار "تعليم من أجل تنمية مستدامة". إنها تأملات طالب "مايور" شخصياً من موران صياغتها، للاستئناس بها في سياق النقاش العالمي حول توجهات تربية المستقبل من أجل تنمية مستدامة.

أما الفصل المترجم، فانعكاس وفي لتصورات موران العبرمنهاجية التي يعكف على تطويرها منذ سبعينيات القرن الماضي، كما يجسد تصوراته الداعية إلى توحيد المعرفة الإنسانية من أجل توحيد مصير النوع الإنساني، ومصير الفرد، والمصير الاجتماعي، والمصير التاريخي، وكل المصائر المتناثرة بلا نظام. تلك هي الرهانات الأساسية لتربية المستقبل، كما يتصورها موران، لأن كل تربية جديرة بالمستقبل، هي تلك التي تربط بين المعرفة والوعي بالشروط الوجودية المشتركة لكل البشر، والوعي أيضاً بالثراء الضروري المتمثل في تنوع الأفراد والشعوب والثقافات.

المترجم

كل تربية مستقبلية لا بد أن تتجه نحو تعليم أولي وشامل، يرتكز على ضرورة فهم شروط الوجود الإنساني، لأننا نعيش في مرحلة تاريخية تتسم بالكونية، ونعيشها كمغامرة مشتركة تهم البشر في كل مكان. هذه هي الحقيقة التي يجب الاعتراف بها في أبعادها الإنسانية المشتركة، وفي الوقت ذاته لا بد من الاعتراف بالتعدد الثقافي المميز للإنسانية.

إن معرفة الإنسان تقتضي بالضرورة موضعته في العالم، وليس فصله، وكما أكدنا على ذلك في الفصل الأول، فإن كل معرفة جادة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار سياق موضوعها. وهنا تصبح أسئلة من قبيل: من نحن؟ أين نتموضع؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نمضي؟ غير قابلة للتجزيء.

إن مساءلة وجودنا الإنساني يعني في المقام الأول مساءلة وضعنا في العالم. لقد أسهم تدفق المعارف في نهاية القرن العشرين في توضيح وضعية الوجود الإنساني بطريقة جديدة، تغيرت معها التصورات السائدة خلال الستينيات والسبعينيات حول الكون والأرض والحياة،

بفعل الطفرات التي حققتها علوم الكوسمولوجيا وعلوم الأرض وعلوم البيئة والبيولوجيا وعلوم ما قبل التاريخ .

وعلى الرغم من التطور الحاصل في هذه الميادين العلمية، فإنها لا تزال تعاني من التجزئة، إذ يظل البعد الإنساني مقصياً ومجزأً إلى فسيفساء متناثرة من رقعة فاقدة لشكلها الحقيقي . وهنا يطرح مشكل إبستيمولوجي يتعلق باستحالة تصور وفهم الوحدة المعقدة للكائن الإنساني من خلال الفكر التجزيئي، الذي ينظر إلى إنسانيتنا بطريقة مجتزأة، ودون أخذ الكون المحيط بنا والمادة الفيزيقية المكونة والأفكار التي نحملها بعين الاعتبار، كما لا يمكن فهم حقيقتنا من خلال تلك النظرة الاختزالية التي تحصر الوحدة الإنسانية في مكون بيولوجي ذري صرف، بل إن العلوم الإنسانية ذاتها تتعرض للاختزال والتجزئة .

وهكذا يصبح هذا التركيب الإنساني غير مرئي وتختفي الحقيقة الإنسانية كما تختفي قشة صغيرة على رمال شاسعة، ومن ثمة تصبح المعرفة على الرغم من أصالتها، بسبب تجزيئها، غير قادرة على استيعاب تعقد الوجود الإنسان واستدماجه، وبالمقابل ترتفع حدة الجهل المعمم، في الوقت الذي تتضخم فيه معرفة الأجزاء المنفصلة .

لكل هذه المحاذير يلزم على تربية المستقبل أن تقوم بالاستفادة من هذا العدد الكبير من العلوم الطبيعية من أجل فهم أفضل لشروط الوجود الإنساني في هذا العالم، أما وظيفة العلوم الإنسانية، فيجب أن تتجه نحو توضيح الأبعاد الإنسانية المتعددة والمركبة وضرورة إعارة الاهتمام لكل الجوانب الإنسانية المهمة، ليس الفلسفية والتاريخية فحسب، بل الشعرية والفنية أيضاً .

1. الإنسان بين التجذُّر والاقتلاع

في البداية لا بد من الاعتراف بانتمائنا المزدوج إلى الكون المادي وإلى المحيط الحي، كما يلزمنا في الوقت نفسه الاعتراف بتفردنا الإنساني، حيث ننتمي في الآن نفسه إلى الطبيعة ونخالفها أيضاً .

1.1 الشرط الكوني

لقد غادرنا إلى غير رجعة فكرة وجودنا في كون منظم، كامل وأبدي لصالح عالم خلق عبر مجموعة من الدوائر، يلف مصيره المجهول، حيث يتضافر فيه التكامل من جهة، والتناقض والتنافس من جهة أخرى، ويتضافر فيه النظام واللانظام أيضاً . إننا نعيش في كون عملاق، يتمدد باستمرار، ويتكون من مليارات المجرات والنجوم، إن كوكبنا ليس سوى نقطة متناهية في الصغر تدور دون توقف في مدار مجرة صغيرة، وفي عالم لا متناهٍ من المجرات .

إن الجزيئات التي تكوّن أجسامنا يمكن أن تكون قد تشكلت خلال الثواني الأولى لظهور الكون، الذي يعود ربما إلى أكثر من 15 مليار سنة، كما أن ذرّات الكربون المكونة لأعضائنا قد تكون تنتمي إلى أحد أو العديد من الشموس السابقة علينا، أي أن جزيئاتنا الدقيقة انتظمت في أوائل الزمن المضطرب للأرض . أما المكونات الكبرى، فقد تجمّعت في دوامات من الاضطراب، تشكل أحد أكبر مصادر الثراء والغنى والتعدد، بعد أن تحولت إلى نسق جديد مختلف عن النسق الكيماوي الأول : إنه نسق حي ذاتي التنظيم .

من حصة تدريبية في مدرسة غزة للموسيقى .

إن هذا التتويج الكوني للتنظيم تعرّض باستمرار إلى تأثيرات اللانظام والتدمير، كما تعرّض أيضاً لمؤثرات التّجميع التي منعت الكون من التلاشي والاختفاء بعد ميلاده.

إننا في وجودنا الإنساني الحالي نتابع المغامرة الكونية من أجل تطور خلاق، تقودنا في هذه المسيرة تلك الميزة الخاصة المتمثلة في قدرة الكائن الحي على التنظيم الذاتي. إننا نواصل بطريقتنا الخاصّة هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر.

2.1 الشرط المادي

نشأت الحياة على الأرض على الشكل التالي: انتظمت القليل من المكونات المادية بطريقة دينامية وحرارية عن طريق «تخمر» بحري وتفاعل كيماوي وتفريغ كهربائي. وهكذا، ترتبط الحياة بالشمس، لأن مكونات الحياة استمدت طاقتها الدافعة من الشمس، وتجمّعت على كوكب لفظته هذه الأخيرة. إن الحياة نتاج للتحولات التي شهدها مجرى الفطونات المستمدة من شرارات الدوامات الشمسية. وبهذا، نتكون نحن الأحياء من بويضة ناتجة عن الشتات والتلاشي الكوني، ومن بعض مكونات الوجود الشمسي التي لقحت الوجود الأرضي.

3.1 الشرط الأرضي

يرتبط مصيرنا بمصير الكون بشكل وثيق على الرغم من أننا نقع في الجزء الهامشي منه. إننا نعيش في كوكب الأرض الذي يمثل الكوكب الثالث للشمس التي انتزعت منها مركزيتها، وأصبحت نجماً قزمياً تدور على غرار مليارات النجوم في مجرة، تشكل بدورها هامش كون يتمدد باستمرار.

لقد تشكل كوكب الأرض الذي ننتمي إليه منذ حوالي خمسة مليارات سنة، انطلاقاً من احتمال يقول بانفجار كوني ناتج عن دمار أصاب شمساً. أما بخصوص الكائن الحي، فقد انبثق ربما حوالي أربعة مليارات سنة نتيجة دوامة ضخمة لمجموعة من الجزيئات، بفعل اضطرابات الكواكب وتشنجاتها. وهكذا انتظمت الأرض كونياً، وأنتجت نفسها باستقلال عن الشمس، وتشكلت من خلال تركيب فيزيقي حي انطلاقاً من اللحظة التي تطور فيها محيطها البيولوجي.

إننا في الآن نفسه كائنات كونية وأرضية. إن الحياة نتجت بفعل تشنجات واضطرابات الكواكب (les convulsions telluriques) وفي سياق مغامرتها الوجودية هذه تعرضت في مناسبتين لخطر التلاشي عند نهاية الحياة البدائية، وخلال المرحلة الثانوية. لقد تطورت الحياة ليس كأنماط مختلفة فحسب، ولكن تطورت كذلك على شكل أنساق بيئية شكل فيها الافتراس سلسلة من الانتصارات ذات التوجه المزدوج: الحياة من جهة، والعدم من جهة ثانية.

تسبح الأرض التي نعيش فيها في هذا الكون الشاسع، لذلك وجب أن نستخلص النتائج من هذه الوضعية الهامشية والمحيطية، وباعتبارنا كائنات حية داخل هذه الأرض، فإننا نرتبط بشكل حيوي بالمجال البيولوجي الأرضي، ما يجبرنا على الاعتراف بالهوية الإنسانية الضاربة في عمق المادي والبيولوجي.

4.1 الشرط الإنساني

إن أهمية التربية على الشرط الإنساني تحظى بأهمية قصوى، لأن من شأن ذلك أن يبرهن على الكيفية التي تشكل بها الوجود الإنساني من خلال تجميع بعدين أساسين: البعد الإنساني، والبعد الحيواني.

تفيدنا الأنثروبولوجيا المهتمة بدراسة حقب ما قبل التاريخ، في التعرف على مسلسل الأنسنة، إذ أن اكتساب الإنسان لإنسانيته يعتبر مغامرة تضرب جذورها في عمق التاريخ، وبمدة تقاس بملايين السنين، إنها مغامرة مرت بمراحل منفصلة شهدت ميلاد أشكال البشر الأولين، الذين يطلق العلم عليهم أسماء "النيودرتال"، و"الأموسابيان" و"الإيريكتوس المنتصب"، كما عرفت أيضاً اختفاء بعض الأنواع السابقة، وكذا انبثاق لغات وثقافات، ومراحل متصلة بما يعنيه ذلك من استمرار مسلسل تطور وظائف اليدين والرجلين واستقامة الجسم وتطور الدماغ، واستمرار التعقيد الاجتماعي، وهي الصيرورة التي انبثقت منها اللغة الإنسانية التي تميزنا. هذه اللغة ساهمت في الوقت نفسه في تطور الثقافة والرأسمال المكتسب من المعارف والكفاءة والاعتقادات والأساطير المنقولة جيلاً عن جيل.

لقد انتهت عملية الأنسنة إلى ولادة جديدة. إن الكائن الإنساني «يتأنسن»، ومع ذلك فإن مفهوم الإنسان يمكن أن نقاربه من خلال مدخلين: مدخل بيومادي وآخر نفسي اجتماعي، حيث يحيل أحدهما على الآخر. إن أصلنا هو الكون والطبيعة والحياة، لكن بفعل هذه الإنسانية نفسها وبفعل هذه الثقافة وهذا الفكر وهذا الوعي أصبحنا غرباء عن هذا الكون، الذي يظلّ متخفياً فينا على الرغم منا.

إن فكرنا ووعينا الذي مكننا من معرفة العالم هو نفسه ما يبعدنا عنه، بل إن قضية الدراسة العلمية والموضوعية للعالم تبعدنا أكثر عن هذا الكون الثاوي فينا الذي ننتمي إليه.

إن تطورنا يتجاوز البعد المادي والحي، وهذا التجاوز هو أن الخصائص الإنسانية في تشتتها شبيهة بما يقع لنقطة صغيرة داخل مجسم ضخم. نحمل داخل خصوصيتنا وتفردنا، ليس فقط الإنسانية وكل الحياة كافة، ولكن نحمل تقريباً كل الكون، بكل غموضه الذي يمكث في عمق الطبيعة الإنسانية. وبالمقابل، لسنا مجرد كائنات يمكن إدراكها وفهمها انطلاقاً فقط مما هو كوسمولوجي أو مادي بيولوجي أو نفسي. إن إنسانية الإنسان أكبر من أن تختزل في هذا البعد أو ذاك.

2. إنسانية الإنسان

1.2 الوحدة المزدوجة

يتكون الإنسان بالدرجة نفسها من مكون بيولوجي وثقافي، وهذه الوحدة المزدوجة هي ما يمنح الإنسان أصالته وتميزه. إنه كائن حي متفوق طور بطريقة مذهلة قدراته على الحياة. إنه تعبير بطريقة مفرطة جداً عن

إمكانياته التمركزية والغيرية للفرد.

إن الإنسان ذو أبعاد بيولوجية، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ولكن افتراض عدم توفره على المكتسب الثقافي سيحوله إلى كائن بدائي من الأصناف الحيوانية الأولى، إن الثقافة بما هي مجموعة من التراكمات الحاصلة عبر سنين طويلة تتضمن كل ما تم الاحتفاظ به ونقله وتعلمه، وهي تتضمن أيضاً القواعد والمبادئ المكتسبة.

2.2 دائرة الدماغ .. الفكر .. الثقافة

لا يكتمل الإنسان ككائن تام الإنسانية إلا داخل الثقافة وبواسطتها، كما أنه من المستحيل تصور ثقافة دون دماغ إنساني (كجهاز بيولوجي يتوفر على كفاءة الحراك، والتصور، والمعرفة والتعلم)، لكن لا وجود لفكر خالص؛ أي إمكانية وجود وعي وفكر دون ثقافة. إن الفكر الإنساني ينشأ وينمو داخل هذه العلاقة الثنائية بين الدماغ والثقافة، إذ بمجرد انبثاق الفكر يتدخل في اشتغال الجهاز العصبي ويؤثر عليه.

هناك إذن دائرة ثلاثية العناصر متشكلة من الدماغ والفكر والثقافة، حيث كل مفهوم يقتضي بالضرورة وجود العنصر الآخر. وهكذا، فإن الفكر انبثق من الدماغ الذي أفرز الثقافة التي لا يمكن تصور إمكانيتها دون دماغ.

3.2 دائرة العقل الإحساس .. والغريزة

إلى جانب ثلاثية (الدماغ – الفكر – الثقافة) يمكن العثور أيضاً على ثلاثية بيو– أنثروبولوجية أخرى غير مذكورة سالفاً، والمتمثلة في ثلاثية أخرى تجد سندها في التصور الثلاثي للدماغ، كما نجدها لدى ماكلين (Mac lean)،[1] إذ أن الدماغ الإنساني حسب نظرية هذا العالم الأمريكي يتضمن مجموعة من المكونات:

- الفص الجبهي الذي تمت وراثته من دماغ الزواحف، وهو مصدر العدوانية والغرائز البدائية.
- قشرة الدماغ الحوفية، كجزء من مخلفات الثدييات الأولى، حيث يبدو الحصين (l'hippocampe)[2] كمؤشر على ذلك الارتباط الدال بين مجموعة من الكائنات وحلقة مهمة في التطور. إن هذا الجزء من الدماغ مسؤول عن تطور العاطفة وتطور الذاكرة الطويلة الأمد.
- القشرة الدماغية: والمتطورة بشكل كبير لدى الثدييات إلى درجة تغطية جميع أجزاء المخ وتشكيل الجزء الغربي من القشرة الدماغية، وهي متضخمة بشكل كبير لدى الجنس البشري مقارنة بباقي الأنواع، وهي التي تحولت فيما بعد إلى قشرة المخ الحديثة (néocortex) التي تعتبر المسؤولة عن القدرات التحليلية والمنطقية والإستراتيجية، والتي تعمل الثقافة على تطويرها باستمرار. وهنا يظهر وجه آخر من أوجه التعقيد الإنساني والمتمثلة في استدماج صفات حيوانية (ثدييات وزواحف) في الكائن البشري من جهة، واختلاط الإنساني بالحيواني من جهة ثانية.

إن العلاقة بين المكونات الثلاثة ليست تكاملية فحسب ولكنها تنافرية أيضاً، حيث تتضمن صراعات معروفة بين الغريزة والقلب والعقل، وبالنتيجة فإن العلاقة الثلاثية لا تخضع بالضرورة لتراتبية: عقل، عاطفة، غريزة. إن العلاقة بين هذه المكونات ليست سكونية بل دائرية. العقلانية بهذا المعنى لا تتوفر على سلطة مطلقة، إنها مجرد مكون يتنافس ويتعارض، ولا يمكن فصلها عن باقي المكونات الثلاثة، وهي في الوقت نفسه هشة، وتتمثل هشاشتها في قدرة باقي المكونات على السيطرة عليها وإزاحتها، بل واستبعادها من قبل الإحساس أو الغريزة. إن غريزة القتل يمكن أن تشغل القدرات الخارقة للمنطق، وتستعمل العقلانية التقنية من أجل تنظيم أفعالها وتبريرها.

4.2 ثلاثية: الفرد، المجتمع، النوع

لا يستقيم الحديث عن الإنسان دون التوقف عند هذه الثلاثية: فرد، مجتمع، نوع؛ لأن الأفراد ليسوا سوى منتوج لصيرورة إعادة إنتاج النوع البشري، لكن هذه الصيرورة نفسها ليست سوى منتوج لالتقاء فرديين. وهكذا، فإن تفاعلات الأفراد تنتج المجتمع، وهذا الأخير شاهد على انبثاق الثقافة التي تؤثر جدلياً على الأفراد انطلاقاً من الشكل التالي:

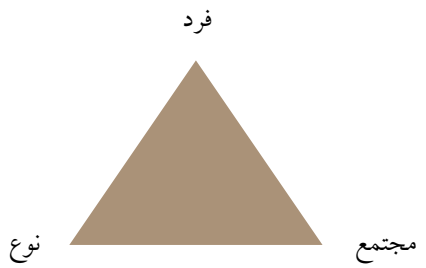

لا يحظى أي عنصر من هذه العناصر بالأفضلية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال إضفاء صفة الإطلاقية على الفرد، وأن نجعل منه الغاية القصوى لهذه الثلاثية، كما لا يمكن في الوقت ذاته أن نضفي الإطلاقية نفسها على المجتمع على حساب الفرد الذي يعيش بدوره من أجل المجتمع. وهكذا يصبح كلا الطرفين غاية ووسيلة: إن الثقافة والمجتمع تمكن الأفراد من التلاحم، كما أن التفاعلات بين الأفراد تمكنهم من استمرارية الثقافة والوصول إلى التنظيم الذاتي للمجتمع. وبالمقابل، يمكننا أن نعتبر أن الانفتاح وحرية تعبير الأفراد/ الذوات يشكل مصيرنا الأخلاقي والسياسي دون أن نعتقد أن الذوات نفسها تشكل الغاية القصوى من ثلاثية: المجتمع، الفرد، النوع. والخلاصة، أنه لا يمكن فهم تعقيد الظاهرة الإنسانية في انفصالها عن العناصر المكونة لها، لأن كل تطور حقيقي للإنسان يعني تطوراً متلازماً للاستقلال الذاتي للأفراد، وتطوراً للمشاركة الجماعية، وتطوراً للإحساس بالاستماع إلى النوع الإنساني.

3. الوحدة المتعددة التركيبات: الوحدة والتنوع الإنساني

يجب أن ترتكز تربية المستقبل على أن تكون وحدة النوع الإنساني لا تتعارض مع تعدده، كما أن فكرة التعدد لا يمكنها القضاء على فكرة

الوحدة. هناك وحدة إنسانية وهناك بالمقابل تعدد إنساني. إن الوحدة لا تتمثل في الملامح البيولوجية للإنسان العاقل، كما أن الوحدة ليست في المكونات السيكولوجية والثقافية والاجتماعية للكائن الإنساني، هناك أيضاً تعدد محض بيولوجي داخل الوحدة الإنسانية ذاتها. وهناك وحدة ليس فقط في الجهاز العصبي، بل وحدة فكرية ونفسية وشعورية وثقافية، الأدهى من ذلك أن الثقافات والمجتمعات الأشد تبايناً يشتركون في مبادئ عامة أو منظمة.

إن الوحدة الإنسانية تتضمن داخلها المبادئ المتعددة للتنوع. وهكذا، فإن فهم الأبعاد الإنسانية تقتضي فهم وحدة النوع الإنساني في تنوعه، وفهم تنوعه في وحدته، يجب بناء تصور جديد ينظر إلى الوحدة في التنوع وينظر إلى المتعدد في الواحد. وعلى هذا الأساس، يجب على التربية أن تشجع مبدأ الوحدة والتعدد في كل المجالات، بل يجب أن يكون هذا الهدف بداية ومنتهى كل فعل تربوي مستقبلي.

1.3 المجال الفردي

تتجاور داخل الفرد نفسه الوحدة والتعدد الوراثيان. فكل إنسان يحمل في جيناته مورثات النوع الإنساني، كما يحمل في الوقت ذاته خصوصياته المميزة له تشريحياً وفسيولوجياً. هناك وحدة وتنوع عصبي، عقلي، وسيكولوجي، وعاطفي، وثقافي، وذاتي. فكل إنسان يحمل داخله خصوصيات عصبية وثقافية وسيكولوجية وعاطفية وذاتية ترتد بالأساس إلى ما هو مشترك، وفي الوقت ذاته، يتكون الإنسان من خصوصيات عقلية وأخلاقية ونفسية وشعورية وثقافية تميزه عن الآخرين.

2.3 في المجال الاجتماعي

المجال الاجتماعي بدوره لا يخرج عن ثنائية التنوع والوحدة في الآن ذاته، ففي اللغات توجد اختلافات شاسعة في البنيات، لكنها تشترك جميعها من حيث تمفصلها المزدوج، ما يجعلنا توائم في الكلام ومختلفين في اللغات. وثنائية الوحدة والتعدد نفسها نجدها في التنظيمات الاجتماعية والثقافية.

3.3 التنوع الثقافي وتعدد الأفراد

تتخذ الثقافة صيغتين، فنقول ثقافة بصيغة المفرد وثقافات بصيغة الجمع. إن الثقافة تشكيلة من المعارف والقدرات والقواعد والأسس والإستراتيجيات والاعتقادات والأفكار والقيم والأساطير المنقولة جيلاً عن جيل، التي يعيد إنتاجها كل فرد وتفرض رقابة على المجتمع وتحافظ على التناسق الاجتماعي والسيكولوجي. فلا وجود لمجتمع قديم أو حديث دون ثقافة، لكن لكل ثقافة خصوصيتها المتفردة، وبالتالي توجد ثقافة في الثقافات، لكن الثقافة لا يمكن أن تستمر إلا عبر الثقافات المتعددة.

توجد التقنيات بدرجات متفاوتة حسب اختلاف الثقافات، كما هو الحال بالنسبة لتقنيات العجلات والدوران، أو الترابط، أو البوصلة أو المطبعة، وتختلف أيضاً حسب درجة حضور المعتقدات الدينية والأفكار الملائكية. غير أن بعض الثقافات استطاعت أن تصبح عالمية. فداخل كل ثقافة يوجد رأسمال خاص من المعتقدات والأفكار والقيم والأساطير التي تشكل أساس الروابط القوية بين أفراد جماعة معينة وأجدادهم وثقافتهم وموتاهم.

يحاول المدافعون عن التعدد جاهدين التبخيس والحد من الوحدة الإنسانية، في حين يعمد المدافعون عن الوحدة الإنسانية إلى اعتبار التعدد الثقافي مسألة هامشية. ضد هذين التوجهين يجب الاهتمام بالوحدة التي تضمن وتشجع التعدد: تعدد يدخل ضمن سياق الوحدة.

تشكل ثنائية الوحدة والتعدد أمراً حاسماً بالنسبة للثقافات. فالثقافة تحافظ على الهوية الإنسانية في خصوصياتها، أما الثقافات فتحافظ على الهويات الاجتماعية في ما يميزها. وهكذا يظهر أن الثقافات تنغلق على ذاتها من أجل حماية الهوية الخاصة. وبالمقابل، تقوم هذه الثقافات بالانفتاح على الخارج من خلال استدماج الأفكار والعادات وعادات الأكل والأفراد، وليس فقط المعارف والتقنيات. إن استيعاب ثقافة ما لعناصر ثقافية تنتمي إلى مجال آخر يؤدي إلى حصول الإغناء والإثراء. مكتسبات كبيرة جداً وخلاقة تنتج عن التلاقح الثقافي. إن النموذج الخلاق لهذا التلاقح يتجسد بوضوح في موسيقى الفلامنكو وموسيقى أمريكا اللاتينية وموسيقى «الراي»[3]. وبالمقابل، فان إقصاء ثقافة ما تحت التأثير المدمر للهيمنة التقنية والحضارية يشكل خسارة للإنسانية كافة، التي يشكل التعدد الثقافي أحد كنوزها الأكثر أهمية.

الكائن الإنساني واحد ومتعدد، وكما أسلفنا سابقاً، فان كل إنسان في أبسط مكوناته يحمل داخله مخلفات كونية، إذ أن كل كائن مهما كانت شدة انغلاقه ومهما كان بدائياً، يتضمن في تكوينه عناصر من هذا الكون. إنه يحمل في داخله أبعاده الداخلية المتعددة وشخصياته الافتراضية، وعدداً لانهائياً من العناصر المتوهمة، ووجوداً، متعدداً، ومتخيلاً وواقعياً، في النوم واليقظة، في الطاعة والتمرد، في السر والعلن.

كل شخص يتضمن داخله مجرات من الأحلام والأوهام ومشاعر ظمأى من الرغبات ومشاعر الحب، وانتكاسات من الحزن، ومساحات لا متناهية من اللامبالاة المتراكمة، وأكواماً من النجوم المحترقة، ومشاعر من الكراهية، وإشراقات من الوضوح، ورعوداً من الحماقات.

4.3 الإنسان، العاقل، الواهم

يجب أن نتخلص في القرن الحادي والعشرين من تلك النظرة الأحادية البعد التي تعرف الكائن الإنساني بالعقل فحسب (homo sapien)، أو من خلال وصفه بالكائن الصانع (homo faber)، تلك النظرة التي تعرف الكائن الإنساني بالعقل فحسب أو التي تحصره في أنشطته الاقتصادية (homoeconomicus) أو من التي تقتصر على الوظائف الأساسية.

يجب النظر إلى الإنسان بعيداً عن هذه النظرة الأحادية، من خلال

استبدالها بتصور يقارب الإنسان باعتباره كائناً مركباً يحمل في ذاته خصائص متناقضة وبطريقة ثنائية الأقطاب، إنه:

- عاقل وواهم (sapiens – démens)
- عامل ولاعب يحب اللهو (faber– ludens)
- واقعي وخيالي (empiricus– immaginerues)
- منتج اقتصادياً، ومستهلك (economicus– consuman)
- نثري وشعري (prosaicus–poeticus)

إن الإنسان العقلاني هو نفسه الحامل أبعاداً عاطفية، وهو نفسه ذلك المؤمن بالأسطورة والخرافات، والإنسان العامل هو نفسه ذاك الذي يجد في اللعب جوهره، كما أن الإنسان الواقعي هو نفسه ذلك الإنسان الحالم. وبالقدر نفسه الذي يمكن أن نصف الإنسان بالاقتصادي يمثل أيضاً ذلك البعد الاستهلاكي. من جهة أخرى، فالإنسان منتج النثر، هو الذي ينظم الشعر أيضاً، بما يعنيه ذلك من امتياز، ومشاركة، وحب ونزوات. إن الحب شعر، وكل حب ناشئ قادر على إغراق العالم شعراً، وكل حب وجد طريقه نحو الاستمرارية يبعث في الحياة اليومية متدفقاً من الشعر فيما تؤدي نهاية الحب إلى رمينا في صحاري النثر. يتضح إذن، أن الإنسان لا يعيش فقط من خلال بعديه العقلاني والتقني، إنه يشمئز، يمزح، وينخرط في الرقص، وفي جذبة مرضية وفي الأساطير، والسحر والطقوس. إنه يعتقد أيضاً في قيم التضحية. ويعيش باستمرار مستعداً لحياة ما بعد الموت.

في جميع المجالات يتمظهر النشاط التقني والعملي والثقافي، كمؤشر على ذكاء تجريبي وعقلاني. وفي جميع المجالات كذلك، تشكل الحفلات والأعياد والطقوس بكل تمظهراتها وأفراحها والضياع الذي تقتضيه مؤشرات على البعد الترفيهي والاستهلاكي والخيالي والواهم في الإنسان.

إن أنشطة اللعب والاحتفال والطقوس ليست مجرد أنشطة بسيطة للترفيه والاسترخاء من أجل التخفيف من عبء اليومي والعمل. كما أن الاعتقاد في الآلهة، وفي الأفكار لا يمكن اختزالها إلى مجرد أوهام أو خرافات. إنها تضرب بجذورها عميقاً في الأعماق الأنثروبولوجية، لأنها تهم الكائن الإنساني في طبيعته الأصلية. دون شك، هناك علاقة ظاهرة أو متخفية بين السيكولوجي والعاطفي والسحر والأسطورة والدين. هناك في الوقت نفسه وحدة وازدواجية ما بين الإنسان العامل، الإنسان اللاعب، الإنسان العاقل، الإنسان الأسطوري، وبخاصة أن التطور العقلاني التجريبي التقني لدى الإنسان، لم يستطع، في أي حال من الأحوال، أن ينهي مع المعرفة الرمزية والأسطورية والسحرية والشعرية.

5.3 الإنسان المركب

إننا كائنات لعوبة، وعدوانية، وواهمة، وبالقدر نفسه، نحن عقلانيون. كل ذلك يشكل اللحمة الخاصة بالإنسان. إن الإنسان كائن عقلاني ولا عقلاني في الوقت ذاته، قابل للقياس ومستعص عليه. إنه كائن ذو إحساس كثيف وغير مستقر. إنه يضحك، يتبسّم، يبكي، ولكن قادر على إنتاج معرفة موضوعية. إنه كائن جدي، ويجيد العد، ولكن أيضاً كائن قلق وعصبي وفرجوي، يحب اللذة ويهيم بها، كائن عنيف وحنون، محب وحاقد، كائن يخترقه الخيال، ويعترف بالواقع، يسمع بالموت ويرفض التصديق به. يستبطن الأسطورة والسحر ويتجاوران داخله مع العلم والفلسفة. مهووس بالآلهة والأفكار ويشكك فيهما وينتقدهما، يتغذى من الأفكار الواقعية ومن الأوهام والأحلام غير الواقعية، وفي الوقت الذي تحدث فيه القطيعة بين الرقابة العقلية والثقافية والمادية، يقع ذلك اللبس القائم بين الذاتي والموضوعي. وعندما يتحقق انسجام الأوهام بفعل سيادة منطق غير مترابط يقوم البعد الأحمق في الإنسان باستعباد الكائن العاقل، ويصبح الذكاء العقلاني تابعاً للجانب المتوحش من البشر.

لا بد من التساؤل كذلك إن كان الحمق يشكل معضلة أساسية للإنسان وليس فقط مخلفاته أو أمراضه. إن تأثير الحمق الإنساني كان واضحاً بالنسبة للفلسفة القديمة والحكمة الشرقية، وللشعراء من كل الأنحاء ولأصحاب النظرة الأخلاقية من «إيرازم» إلى «باسكال»، ومن «مونتين» إلى «روسو». غير أن موضوع الحمق هذا تلاشى، بفعل الفورة الأيديولوجية للتيار الإنساني التي اجتاحت العالم، واجتاحت أيضاً العلوم.

لم يقد الحمق الإنسان إلى الفناء (فقط الطاقات النووية الناتجة عن استخدام العقل العلمي وفقط التقدم العقلاني والتقني في مقابل البيولوجي، يمكن أن تودي إلى دمار الإنسان). بل إن البشر وعلى الرغم من قضائهم لجزء مهم من أوقاتهم في الرقص وممارسة الطقوس والعادات والتزيين وعدد لا يستهان به من الحماقات، فإن التقدم التقني والعلمي الحاصل يعتبر مذهلاً حقاً، وأنتجت الحضارات والفلسفة والعلم، وسيطر الكائن الإنساني على كوكب الأرض.

يمكن أن نستخلص أن التطورات المعقدة أنجزت بواسطة الحمق الإنساني وضده. إن الحوار عقل/ حمق كان ناجعاً في الوقت نفسه الذي يشكل فيه عنصر دمار. إن الفكر والعلم والفنون قد انبثقت من خلال القوة العميقة للعاطفة والأحلام والقلق والرغبات والمخاوف والآمال. في كل الإنتاجات الإنسانية يتجاور دائماً الثنائي عقل/ حمق. الحمق يناقض العقل لكنه يستحثه. وقد لاحظ أفلاطون منذ القديم أن ديكي، ممثلة قانون الحكمة، سليلة أوربيس التي تمثل إله اللانظام.

إنه الغضب الأعمى ذاك الذي دمر أعمدة العبودية، التي مثلها سجن الباستيل، وبالمقابل فإن السيطرة على سجن الباستيل كانت من طبيعة عقلية، والعقل نفسه سيتحمل مسؤولية طوفان الموت والإعدام الذي أعقب الثورة الفرنسية.

العبقرية في شكل من أشكالها، ناتجة بالأساس من عدم القدرة على سجن الإنسان في ما هو واقعي ومنطقي، وفي شفرة وراثية أو في ثقافة أو مجتمع. إن البحث والاكتشاف لا يتقدم إلا عبر صبيب معين من اللايقين، وعبر هامش من التردد المتاح. لأن العبقرية لا تنبثق إلا من رحم الانفلات من الرقابة. وهنا يتأجج الحمق ويفعل فعله المبدع.

ينبثق الإبداع من خلال ذلك الرابط بين الأعماق النفسية والوجدانية المظلمة والشعلة المتقدة للوعي. وعلى هذا الأساس يجب على التربية أن تكشف وتوضح المصير المتعدد المعالم للإنسان، من خلال توضيح مصير النوع الإنساني، ومصير الفرد، والمصير الاجتماعي، والمصير التاريخي، وكل المصائر المتناثرة بلا نظام وغير المنفصلة. ومن بين الرهانات الأساسية أيضاً لتربية المستقبل، الإعلاء من موهبة فهم التعقيد الإنساني ودراسته. إن كل تربية جديرة بالمستقبل هي تلك التي تربط بين المعرفة والوعي بالشروط الوجودية المشتركة لكل البشر والوعي أيضاً بهذا الثراء الضروري المتمثل في تنوع الأفراد والشعوب والثقافات، ما يجعل جذورنا مشتركة كمواطنين ننتمي إلى هذه الأرض.

إدغار موران
ترجمة: عزيز مشواط

الهوامش

* العنوان الأصلي للمقال هو (ENSEIGNER LA CONDITION HUMAINE)، ويمثل الفصل الثالث من كتاب إدغار موران المعنون بـ «المعارف السبعة الضرورية لتربية المستقبل» (Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur)، والمنشور بدعم من اليونسكو.

[1] بول د. ماكلين عالم البيولوجيا العصبية، أمريكي الجنسية (1913-2007). اشتهر بنظريته الثلاثية حول الدماغ التي يعتبر فيها أن الدماغ الإنساني يتضمن ثلاثة مكونات، بحيث يحيل كل مكون على مرحلة من مراحل التطور الإنساني بدأت من الزواحف والثدييات وصولاً للإنسان الحالي، (المترجم).

[2] الحصين أو قرن آمون **قشرة دماغية توجد أسفل الفص الصدغي للدماغ**، وقد حظيت باهتمام كبير من الدراسات التشريحية منذ أواخر القرن التاسع عشر، وبخاصة في أوائل القرن المنصرم. ويرجع الاهتمام إلى المعطيات التي قدمها طبيب الأعصاب بابيز (Papez)، حيث أظهر هذا الباحث أن للحصين دوراً مهماً في اكتساب المعلومات، وافتراضها من الجهات الأساسية والضرورية للتذكر والذاكرة. وبالفعل، أكدت الدراسات فيما بعد أن للحصين دوراً في معالجة المعلومات الخاصة بالتذكر والذاكرة طويلة المدى. وزيادة على كون هذه الجهة الدماغية تشكل الممر الضروري للمعلومات، فإن لها دوراً آخر لا يقل أهمية عن الأول، بحيث أنها تخزن المعلومات التي هي في طريق الترسيخ لمدة زمانية تصل إلى أسابيع عدة، قبل أن تبعث أو تمرر إلى نوى أو باحات قشرية دماغية أخرى. ويستغرق تخزين المعلومات بالنوى والباحات الأخرى حيزاً زمانياً يدوم في بعض الأحيان بباحات أو نوى عدة، لكل منها دور ونشاط عصبحيوي يتولى وظيفة معلوماتية معينة، (المترجم).

[3] الراي هو حركة موسيقية غنائية نشأت بالغرب الجزائري، تعود أصولها إلى شيوخ الشعر الملحون أي «المُلحّن»، لغة أغاني الملحون من اللهجة العامية القريبة جداً للعربية الفصحى، وتأخذ جل مواضيعها من المديح الديني والمشاكل الاجتماعية. ركزت اهتمامها إبان فترة الاستعمار الفرنسي على سرد مآسي السكان من صعوبة في المعيشة وآفات اجتماعية تحاول بها توعية المستمع. تطورت هذه الحركة كثيراً في أواخر القرن الماضي في كل من المغرب والجزائر، بعد أن استطاع بعض الشباب تطعيمها بإيقاعات موسيقية غربية وشرقية مختلفة لتشكل نموذجاً فريداً من التمازج والاختلاط الموسيقي، المترجم.

من دورة كمبيوتر للفتيات نظمها مسرح الحرية في جنين.